مكانة العرب بين الأمم

للدكتور عبد الوهاب عزام

تخلد الأمم على وجه الأرض وتحيا على مر الدهور وتثبت فى صفحات التاريخ بأسباب وقوانين . ويختلف حظها من الخلود ومن المجد باختلاف هـذه الأسباب المؤاتية والقوانين السارية ، قوة وضعفاً ، وإبطاء وإسراعاً ، وضيقاً واتساعاً . وهى أسباب متصلة متشابكة يؤدّى بعضها إلى بعض ويمسك بعضها بعضاً . من هـذه الأسباب صلاحية الوطن ، والقوة الحسية والمعنوية ، والثبات للحادثات ، والاحتفاظ بالخصائص ، والاعتداد بالنفس والثقة بها ، وحضارة الأمة وأثرها فى العالم ، وقدرتها على الأخذ والإعطاء فى معترك الأمم ، والمكانة بين الناس ، وعظم التاريخ على مر الدهور

فأما الوطن فقد منح الله العرب موطناً فسيحاً وسطاً بين المواطن ، فياضاً بالخيرات بعيداً من الآفات الطبيعية المدمرة . موطنُ العرب جزيرتهم التى ولد فيها تاريخهم ومثواهم القديم الذى عرفهم فيه التاريخ منذ تحدث عن البشر بين نجد إلى إيران وجبال طوروس والبحر الأبيض ، ثم متقلّبهم الذى نشرهم فيه الإسلام إلى بحر الظلمات وأواسط إفريقية . وهو موطن شاسع الأرجاء يقع معظمه فى الإقليم المعتدل ، وقليل منه فى الإقليم الحار ، ويجرى فيه ثلاثة من أعظم أنهار العالم : النيل ودجلة والفرات ، وتتقسمه السهول الخصبة ، والبراوى والصحارى والجبال ، وتمتد سواحله على بحر العرب والبحرين الأحمر والأبيض . هذا الموطن العظيم يكفل الحياة القوية والعيشة الغنية ، والثباتَ على الخطوب ، والبقاء على الزمان . وقد جعل الله مهد العرب جزيرة ممتازة محدودة بالبحار من معظم جهاتها فحفظت هـذا الجنس القوى بمعزل من تقلب الجماعات ، بعيداً من طرق المهاجرات فبقى يطبع الأجسام القوية والطباع السليمة ، والفطر الخالصة ، ثم يمد بها أجزاء الموطن العربى الكبير ، كلما نالت الخطوب من أهلها أو أرقتهم الحضارة . وما يزال يقذف بهم موجة بعد موجة كالنهر العظيم المتدفق من فُنن الجبال ، بَعُد ينبوعه من الشوائب ، واطّرد مجراه إلى الغاية المقدورة له ، ونبتت على عبريه الزروع والأشجار ، وحيّت الأمم

ما تزال جزيرة العرب خلاّقة ولاّدة فياضة مُمدّة لأقطار العرب بالقبيل بعد القبيل . فإن بليت الأمم فهذه الأمة لا تبلى ، وإن أفنت الأقوام الحوادث فالعرب لا تفنى ، وإن نضب معين الأمم فلن يغيض الدم العربى الخالص ما دامت أنهار الله جارية فى أرض الله ، وما دامت شمسه وهواؤه وأرضه تنمى الأجسام وتطبع الأقوام

وأما الثبات للحوادث الطبيعية والإنسانية ، فما دام هـذا الوطن العظيم يعرف بعضه بعضاً ، ويتصل بعضه ببعض ، فستجد كل ناحية فى النواحى الأخرى ما يسعفها بعطائها إن قحطت ، وما يدرأ عنها الأحداث إن طغت عليها . ومحال أن تعمها كلها الحوادث إلا أن يكون حادث القيامة حين يرث الله الأرض ومن عليها .

وأما احتفاظ الأمة بخصائصها فعلى قدر ما فى أجسامها وعقولها من قوة ، وعلى قدر ما فيها من اعتداد بالنفس وثقة بها ، والعرب من أقوى الأمم أجساماً وعقولا ، وأكثرها أنفة وإباء وعجباً وفخراً . والعربى منذ العصور الأولى يغلو فى الاعتداد بنفسه ويأبى أن يسويها بالأمم ، ويربأ من مصاهرتها . وقديماً أبى النعمان أن يزوج كسرى ، وحديثاً قال أحد مجاهدى العرب فى طرابلس الغرب ، وقد عقد صلح بين أهل طرابلس والطليان وامتنّ هؤلاء على العرب بأن سووهم بأنفسهم فى الحقوق . قال هـذا العربى المجاهد وهو ليس رئيساً ولا زعيما : « وا سوأتا ! أأسوّى أنا بالروحي ... إنه لذل عظيم » . بل كان من آفات العرب الغلو فى هذه الكبرياء فصعب أن ينقادوا ويساسوا القياد . فبهذا الشعور بالعلاء والعظمة يعتزون بأنفسهم ، ويعتزون بخصائصهم ، ويتمسكون بأخلاقهم . وقديماً قال شاعرهم :

وإنى لمن قوم كأن نفوسهم
بها أنف أن تسكن اللحم والعظما

وقديما رهن حاجب بن زرارة التميمى قوسه لملك الفرس ضماناً لما التزم من خراج . وحارب بنو شيبان الفرس إباء أن يسلموا سلاح النعمان بعد أن قتله كسرى . وقال أبو تمام يمدح بنى شيبان :

إذا افتخرت يوماً تميم بقومها وزادت على ماوطدت من مناقب
فأنتم بذى قار أمالت سيوفكم
عروش الذين استرهنوا قوس حاجب

والمثل أكثر من أن تذكر فى هذا المقام ، وأبين من أن تبين

إذا أحاطت الأمة القوية أنفسها وخصائصها بأخلاق قوية كفلت دفع الخطوب عن حوزتها . ولا سيما الأخلاق الإنسانية العزيزة التى تأبى للأمة أن تخضع فتذل فتفنى . والعربى فى جاهليته وإسلامه أبيٌّ حرٌّ ، يأنف أن يَستعيد أو يُستعيد ، وقد أمدّه الإسلام بفضائل سيّرته على وجه الأرض كالنجم لا يضل ولا يكل ، وجعلته قانوناً من قوانين الله يسير إلى غايته مسير الشمس والقمر فى حُبُك السماء

وكلما أخرجت الأمة من عمل أيديها ، وأظهرت من نتاج عقولها ، ونشرت من ثمرات أخلاقها وآدابها ، زادتها صناعاتها وعلومها وآدابها رسوخاً على الأرض وثباتاً على مجرى الخطوب . ولا يعرف التاريخ أمة أثرت على وجه الأرض ، وشادت فى الآفاق وفى الأنفس أكثر من العرب . لا يعرف التاريخ أمة حملته أكثر مما حملوا ، أو جمّلته أحسن مما جملوا ، أو سيطرت عليه أعظم مما سيطروا ، أو سطرت على صفحاته أجل مما سطروا . فإذا تركنا التاريخ القديم من معين وسبأ وحمير ومن بابل وأشور ، فهل يحدثنا التاريخ عن أمة طلعت على العالم بمثل ما طلع العرب ؟ همةٌ ذللت المشرق والمغرب فى سنين ، ونيةٌ تريد الخير للناس أجمعين ، وعدلاً يسوى بين الجبارين والمستضعفين ، بل يمحو من الأرض كل جبار ومستضعف ويقف الناس جميعاً إخوة على سَنَن من العدل المطلق ، والمساواة الكاملة ، والأخوة الشاملة .

هل يعرف التاريخ أمة جمعت فى سلطانها ما جمع العرب من أمم وأقطار ، ثم آخت بينهم وحفزتهم إلى الفضائل والآداب والعلوم والصناعات ، فإذا معظم العالم المتحضر متعاون على نسج حضارة واحدة عظيمة ، كل أمة على قدر مواهبها وقواها ؟ فوصلت ما انقطع من سير الحضارة ، وقطعت ما اتصل من سير الجبروت والاستعباد والشر والفساد . وما فعلوا هذا كله إلا ابتغاء وجه الله ، وقصداً إلى إصلاح الناس ، وعمران الأرض . وقد ربط التاريخ ذكر العرب وتاريخ العرب بهذه المآثر وتلك الفضائل والأخلاق والمكارم ، وضمن لهم الخلود ما بقي للناس سيرة فى الفضائل والمعالى . لا أقول إن الإسلام صُنع العرب فالإسلام صنع الله ، ولكن العرب كانوا أول من حُمّلوا هذه الأمانة فحملوها ، ودُعوا إلى هذه المعالى ففقهوها ، وكلفوا نشرها فنشروها ، فكأنما خلقت لهم أو خلقوا لها ، وكانوا أحق بها وأهلها ، وللأمم الإسلامية بعد هذا فضل لا ينكر . ثم أدب العرب هل يعرف العالم أعظم منه سعة رقعة ، وطول مدة ، وجمالاً وجلالاً ؟

إذا ثبّتت الأمم بنيانها على كر العصور بالسير المجيدة ، والمثل العالية ، فعند العرب سير رجف بها الزمان ، وأقر لها الحدثان . وإن مكنت الأمم لأنفسها بالصناعات والعلوم والآداب فعند العرب ما يكفل لهم التمكن فى الأرض والخلود فى سجل التاريخ . وحسبُ المجادل أن يُسير فكره بين هضب إيران وبحر الظلمات وجبال البرانس وغابات إفريقية ، ويعبرَ التاريخ فى هذه المواطن كلها أربعة عشر قرناً ليرى مجد العرب ويبصر حجة العرب

ولا نقول إن العرب خَلقوا ولم يقلدوا ، وابتدعوا ولم يتبعوا ، وأعطوا ولم يأخذوا ، وأعاروا ولم يستعيروا ، ولكنا نقول إنهم أحسنوا الخلق والتقليد ، وأجادوا الابتداع والاتباع ، والأخذ والعطاء ، والأعارة والاستعارة . والأمم تدل على فضلها بالأخذ كما تدل عليه بالعطاء ، وتثبت حياتها بالمحاكاة كما تثبتها بالخلق . وإنما حياة الأحياء على قدر ما تؤثر فى غيرها وتتأثر . الذى لا يأخذ ولا يعطى جماد ، والنبات يأخذ قليلاً ويعطى قليلاً . وانظر بعدَ هذا الحيوان الأعجم والإنسان ، ثم اعتبر هذا فى تاريخ الأمم يصح الاعتبار ويطرد القياس

تخلد الأمم بأفعالها وآثارها ، وبقينها فى أنفسها ، وبزيدها مكانة وتمكيناً فى الخلود أن يزيد على مر العصور مجدها ، وتعظم على كر الدهور بين الأمم مكانتها ، حتى تعلو على أحداث الزمان ومطامع الإنسان ، فتقر لها الأمم بالفضل وتخلى لها سبيلها فى الحياة

وللعرب من هذا كله نصيب موفور ، وسمى بين الأمم مشكور ، إلا من ضل به الهوى أو جار به الحسد . وهم جديرون اليوم بتاريخهم ، حقيقون بسيرتهم . ولن يكونوا إلا كما كانوا من قبل دعاة حرية وأخوة ، وهداة مدنية وعمران ، وأئمة أخلاق وآداب ، وأنصار فضيلة وحق . ولن يكون نهوضهم اليوم إلا خيراً للبشر وسلاماً للناس أجمعين

ولهذه الأمة الكريمة الخالدة لغة كريمة خالدة أنضجها الزمان المتطاول فى البقاع الشاسعة من الجزيرة ، وأخرجتها الفطرة السليمة والإحساس المرهف ، والإدراك النافذ ، لغة كاملة معجبة عجيبة تكاد تصور ألفاظها مشاهد الطبيعة ، وتمثل كلماتها خطرات النفوس . تكاد تتجلى معانيها فى أجراس الألفاظ ، وتتمثل فى نبرات الحروف ، كأنما كلماتها خطرات الضمير ونبضات القلوب ونبرات الحياة ، فالمعانى المحسة والمعقولة مبينة فى ألفاظ تدرك الفروق الدقيقة بين الأشياء المتشابهة ، فتضع للشبيه لفظاً غير ما وضعته لشبيهه إدراكا للفرق الدقيق بينهما . فإذا وضعت بعض اللغات للضرب مثلاً كلمة واحدة وضعت العربية كلمات تختلف باختلاف آلة الضرب وموضعه من الجسم . وإذا دلت اللغات على صفات الوجه الإنسانى مثلاً بكلمات مركبة لكل صفة ، دلت العربية على كل حلية فى الإنسان وكل سمة فى عينيه وحاجبه وأنفه وفمه وأسنانه وغيرها بأسماء خاصة . وليس هذا مقام التمثيل والتفصيل

ثم هذا الإحساس الحاد الدقيق المتمثل فى المفردات يتجلى فى التركيب مدهشاً . فكل كلمة لها فى الجملة مكانة يحس بها المتكلم أو تحس بها الكلمة نفسها فتعطى صوتاً مكافئاً لهذه المكانة . فالكلمة الأصيلة لها أقوى الأصوات وهو الضم ، والأخريات لها الفتح والجر ، وما أرى هذا إلا ضرباً من الحياة فى الألفاظ والتركيب يبين عن أدق الإحساس وألطفه

وإذا اشتملت اللغات على كلمات هى مادتها ، ففى اللغة العربية مادة وقوالب يستعملها صاحبها حين الحاجة ، فيها مادة ووزن . تأخذ المادة أو اخلقها أو استعرها من لغة أخرى ، ثم صبها فى قالب من قوالب الأسماء والأفعال وصورها بالقوالب أو الأوزان ما تشاء . فلغتنا تدل بالمادة والوزن وبالصيغة والهيئة . فمن سمع فاعلا أو مفعولا أدرك أن هذا الوزن فى حركاته وسكناته له معنى يلازمه فى المواد كلها . وبهذا حُدت اللغة واستبانت خصائصها ، حتى نفت عن نفسها كل كلمة أجنبية ما لم تخضع لأوزانها وقوانينها . للأسماء أوزان وللأفعال أوزان ، فما لا تزنه هذه الأوزان فهو أجنبى . وبهذا بقيت على الدهر المتطاول خالصة نقية ، صحيحة قوية

قيل إن لغتنا صعبة بهذه المفردات وبهذه التراكيب والأوزان ، وإنها تكاد تأبى على دارسها ، وتعجز طالبها . وهذا حق لا ندفعه ، وإن عد عيباً فلا ننكره . ولكنه ليس من نقصان فى خلقها أو اختلال فى بنيتها أو عجز فى موادها وأوزانها . ولكنه نتيجة التطور الكامل والنمو التام . فأدنى الأشياء فى هذا العالم أيسرها وأقلها تركيباً . والكمال يصحبه التركيب والتفصيل والأشكال والأعضال . اعتبر هذا فى النبات والحيوان ، فى الحيوان ذى الخلية الواحدة بالإنسان ، ثم انظر المراتب بينهما . واعتبر هذا فى البداوة والحضارة وفى أنواع الحضارات تجد النقص بساطة ويسراً ، والكمال تركيباً وصعوبة . الكمال فى هذا العالم لا ينال إلا بتطور تلده الأحقاب بعد الأحقاب ، وتنوء به المزائم بعد المزائم ، فلغتنا صعبة ، ولكنها كاملة حية دقيقة مواتية ، حية حساسة موسيقية متلألئة

وقد امتحنت هذه اللغة الحضارة الواسعة ، واختبرها التاريخ الطويل ، فلم تعجز ولم تبى ولم تضق بكل ما أدركه الإنسان من علم ، وثقفه من صناعة ، بل وسعت حضارة القرون المتطاولة والأمم المختلفة غير كارهة ولا مكرهة

وقد أراد الله لها أن تكون لغة كتابه وترجمان وحيه ، وبلاغ رسالته ، فاشتملت على العالم الحسى والعقلى مصورا فى كلمات وآيات ، وجزيت على هذا خلوداً ما خلد للانسان عقل وقلب ، وما استقام له إحساس وإدراك . وتقلب الزمن ، وتوالت المحن ، وثارت الفتن وهى ثابتة ناضرة رائعة ثبات قوانين الله وروعة كواكبه . خمسة عشر قرناً عمت لغات وخلقت لغات ، وبدلت لغات وحرفت لغات ، والعربية هى العربية لم تمح ولم تغير ولم تبدل ، وما آية الخلود بعد هذا ؟

ولم تبق هذه العربية لغة العرب وحدهم بل ثقفتها الأمم